

سوق الدلالات

فضاء للأنثى و معاني أخرى...

دراسة في انثروبولوجيا الجندر-منطقة بسكرة الجزائر -

الكلمات المفتاحية : سوق- دلالة - طقوس- شعائر- شعبي- معتقدات.

د.دليلة مومي ادير

damoummi@yahoo.fr

أستاذ بحث

المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ

وعلم الانسان والتاريخ

الجزائر

ملخص:

سوق الدلالات هو سوق شعبي خاص بالنساء، يعقد كل يوم في فضاء خاص بالنساء بمنطقة سيدي خالد و هي منطقة على بعد 120 كلم جنوب ولاية بسكرة بالجنوب الشرقي للجزائر. سميت هذه المدينة باسم ضريح مشهور تقام حوله احتفالات طقوسية كل سنة و تصادف 26 من شهر رمضان. حيث يقام كذلك سوق شعبي كبير يستقطب زوارا و تجارا من المغرب العربي و من إفريقيا. ووسط هذا الفضاء الرجولي الزاخر أوجدت المرأة حيزا خاصا بها لتبيع منتجاتها النسوية الخاصة بها و تشارك الرجل ، متعة الاحتفال و التبرك بالضريح. سوق الدلالات كذلك هو التواجد النسوي في مجتمع الرجل حيث يحرم الاختلاط و البيع و الشراء معهن في زمن غابر. ومع الوقت تمكنت المرأة من إقامة تجارتها الطقسية و بيع السلع المفعمة بعبق الأنوثة ، و توجد لنفسها مكانا داخل هذا السوق ، انه فضاء لانطلاق المرأة و التحرر من القيود. وهذا تحديدا ما أحسسته كباحثة و كامرأة و كبائعة في سوق الدلالات .

فإلى أي مدى اتخذت المرأة الخالدية مكانا لها في فضاء رجالي؟ وهل يعتبر السوق حكرا على الرجال فقط؟

Resumé

Market Markals est un marché populaire pour les femmes, organisé tous les jours dans un espace réservé aux femmes dans la région de Sidi Khaled, à 120 km au sud de Biskra, dans le sud-est de l'Algérie. Cette ville a été nommée d'après un célèbre mausolée où des célébrations rituelles ont lieu chaque année et coïncident avec le 26 Ramadan. Là où il y a aussi un grand marché populaire attire des visiteurs et des commerçants du Maghreb et d'Afrique. Au milieu de cet espace viril, les femmes ont créé leur propre espace pour vendre leurs propres produits et partager le plaisir des hommes,

Le marché de la sémantique est aussi la présence des femmes dans la société des hommes, où il est interdit de mélanger, acheter et acheter avec elles pendant longtemps. Au fil du temps, les femmes ont réussi à mettre en place leur propre commerce rituel et à vendre des produits empreints de féminité: elles ont leur place sur ce marché et constituent un espace où les femmes peuvent s'affranchir des restrictions. C'est précisément ce que j'ai ressenti en tant que chercheuse, en tant que femme et en tant que vendeuse sur le marché sémantique.

Dans quelle mesure les femmes Khalidiya ont-elles pris leur place dans l'espace de mes hommes?

Le marché est-il réservé aux hommes uniquement?

1- الأسواق الشعبية :المغزى والمعنى.

يشق مصطلح السوق حسب قاموس تاج العروس، سوق، ساق الماشية سوقا و سياقة بالكسر، و مساقا كسحاب.و استاقها، و اساقها فانساقا فهو سائق و سواقو ساق فلانا يسوقه سوقا أصاب ساقه، و من المجاز ساق إلى المرأة مهرها، و صداقها سياقا أرسله.

و السوق بالضم معروفة و لذا لم يضبطه قال ابن سيدة: هي التي يتعامل فيها، و قال بن دريد أصل اشتقاقها من سوق الناس بضاعتهم إليها مؤنثة و تذكر.

و السوق Market هو المكان الذي يتم فيه تبادل السلع (على اعتبار أن النقود هي سلعة)، بغض النظر عن كون هذا المكان محدد جغرافيا، (في مبنى مجمع تجاري مثل) ام لا (التسوق عبر الانترنت حيث يكون البائع و المشتري في بقعتين جغرافيتين مختلفتين).

و يقصد بالسوق في اللغة الدارجة، المكان الذي يجتمع فيه الناس من بائعون و مشترون لعقد صفقات تجارية.

و من حيث الوجهة و المفهوم الاقتصادي يعني السوق أية مجموعات من الناس تربطهم علاقة بسلعة معينة و أي مكان تتم فيه مبادلة علة نطاق تجاري.

و وفق هذا المفهوم ليس بالضرورة أن يشير السوق إلى مكان معين، بل إلى سلعة أو سلع معينة، أو إلى بائعين و مشتريين يتنافسون فيما بينهم و يجرون المعاملات التجارية بحرية فيما بينهم. كما يعرف السوق أنه مجموعة من الزبائن المحتملين الذين يحتاجون و يريدون بضاعة ما، و هم مستعدون و قادرون على شرائها، و بحسب هذا التعريف فإن :

- البضاعة المتوفرة لشريحة من السكان، و هم يملكون المال الكافي لشرائها و لكنهم لا يحتاجونها و لا يريدونها، إذا هم لا يشكلون لهذه البضاعة .
- البضاعة التي لا يمكن إيصالها إلى منطقة ما، بالرغم من وجود حاجة و رغبة في الحصول عليها (زبائن يحتاجون و يريدون) و بالرغم من كونهم مستعدين لشرائها، فهم غير قادرين على شرائها لأنه لا يمكن إيصالها لهم، لا يشكلون سوقا.
- البضاعة متوفرة و مرغوبة و لكن الراغبين بها لا يملكون المال الكافي للحصول عليها، لا يشكلون سوقا لهذه البضاعة.

يعد مصطلح السوق إلى حد ما فكرة تجريدية يستخدمها الاقتصاديون للتعبير عن الالتقاء بين البائعين و المشترين، و في الوقت الراهن يجرى قسم من التعامل بالتجارة الالكترونية عبر الانترنت و لا يحتاج السوق في مثل هذه الحالة إلى مكان محدد

لقد تطرقنا إلى مفهوم السوق لغة و اصطلاحا و كذلك من وجهة نظر اقتصادية، غيرانه يوجد مفهوم اخر السوق و مكوناته من وجهة نظر انثروبولوجية، لأن السوق التقليدي أو السوق الشعبي أو السوق الشعبية التي تحتوي ظواهر ثقافية، موصف جماعة معينة دون أخرى، و يعطيها ميزة تميزها عن غيرها، و يكون ليس فقط مكانا لتبادل البضائع و الخدمات، و إنما مكانا لتبادل الثقافات، و العادات و التقاليد، و كل ما له علاقة بثقافة الانسان و علاقته مع الآخرين، و ما يتقاسمه مع الآخرين من معتقدات.

و يلعب السوق باعتباره مؤسسة اجتماعية، دورا في حياة الجماعة الشعبية فهو يمثل لسكان القرية، والمراكز السكانية القريبة والبوادي المجاورة، والتجار و الحرفيين من المنطقة و المناطق الأخرى، لقضاء مصالحهم الاقتصادية كسواء و بيع المحاصيل الزراعية و المواد الغذائية و الملابس و الأثاث و أدوات العمل الزراعية و الأدوات المنزلية و الماشية و إصلاح الأدوات الزراعية ...الخ و هو يمثل ظاهرة ثقافية بمقدار ما يمثل ظاهرة اقتصادية.

لقد أجريت عدة دراسات عن السوق كان ابرزها دراسة العالم الأمريكي كليفورد غيرتز، الذي أنجز برفقة فريق من الأنثروبولوجيين دراسة تفصيلية للعلاقات المعقدة القائمة في السوق. وكان اختيار مدينة صفرو التي ينافس سكانها أهل فاس، عاملا أعطى الفريق الفرصة لاستكشاف الجوانب المتعددة لدور السوق في الحياة المدنية: «القرب، الواجبات، التبادلات، السكن». وقد أظهر غيرتز عبر تحليل دور الوقف والزوايا والمؤسسات في إنعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسوق، دور شبكات الزبائن والتجمعات وعلاقة الريف بالمدينة في صياغة الإطار العام لحياة المجتمع داخل المدينة.(1)

2-سوق الدلالات والدلالات:

سوق الدلالات مشتق من كلمة دلالة و الدلال هو من يدعو الى سلعته بصوته، فسوق الدلالات هو سوق شعبي للنساء فقط، حيث يبيعن سلعهن النسوية الخاصة. من بخور و ادوات الزينة و ملابس داخلية و قماش وكل ما علاقة بالمرأة

اذن فهو فضاء انثوي محرم على الرجال ارتياده لسبب بسيط هو انه سوق النساء "النسا". و لهذا المصطلح سوق النسا معنى مغاير , فقد يفهم منه قلة عقل المرأة في التعامل او سوء سلوكها وتحضرني هنا ابيات من رباعيات عبد الرحمان المجذوب و الذي يصف فيها المرأة بقوله :

سوق النسا سوق مطيار ***يا داخلوا رد بالك**

مشاكل النساء ا تنتهي.....حذاري من التدخل

يورولك من الربح قنطار ***ويخسروك في راس مالك**

قد يظهر الامر مريحلكنك ستخسر نفسك بالمقابل

المهم انه في هذه الدراسة نقصد السوق النسوي , الذي يباع فيه مستلزمات المرأة. وهو سوق

خاص بالنساء يعقد بشكل يومي في ساحة المدينة ,اما الدلولات فهو الاسم الذي يطلق على

الخالديات أي نساء سيدي خالد من قبيل التعريف بهن وباصلهن .ففي تراث المنطقة الشعبي يتغنى

بالدلولات من قبيل العزة والانفة .ففي سنوات السبعينات اشتهرت النساء الخالديات بمنتجاتهن من

الزرايبي و الحنابل "الاعطية"و البرانيس الجيدة، فكان الرجال يهاجرون إلى فرنسا نظرا لقلة فرص

العمل، بعد الاستقلال، أما النساء فيكتفين بالعمل اليدوي و يعلن أطفالهن، و خلال هذه الفترة حصل

كساد لهذه المنتجات فطلبت النسوة من شولة أن تذهب إلى ضريح سيدي خالد، و صادفت زيارتها

احتفال 26 رمضان فرقصت و غنت و جذبت ودخلت عوالم الأحوال ، و في الليل وضعت أدوات

العمل في الضريح ، و نامت قربه، فرأت النور يخرج من الضريح و استنتجت أن جدها قد أنصفها ،

و في الغد جاء تجار الغرب الجزائري و أخذوا كل المنتج الخالدي. و من ذلك التاريخ أصبحت

قصتها تغنى في كل احتفالات 26 رمضان منها هذا المقطع :

- شولة روجي لسيدك و النسا لابات *

- اديلو المحكة* و الآلوسات

* - لابات : لم ترضى الذهاب ، لم توافق .

- واشكولو على الحوالى يا دلولات

- لحوالا راها بخست انا باش نعيش

- عادت من سوم البصلة و الحشيش

بمعنى : شولة "اسم علم لامرأة " اذهبي لسيدك ,فبقية النساء ابين ذلك .وخذي معك المحكة والالوسة
"أدوات للغزل والنسيج".واشكوا عن حالكن يا نساء سيدي خالد او الدلولات. فالاغطية نزل ثمنها بماذا
أعيش واعيل,حتى ان ثمنها اصبح مثل ثمن البصل والحشائش...

3-سوق سيدي خالد: بين التاريخ والذاكرة

لا يعرف تاريخ محدد لاحتفالات سيدي خالد ، غير أن سوق 26 رمضان مذكور في
المصادر القديمة ، باسم سوق البربر ، وقد ذكره ياقوت الحموي ... بالفسطاط من مصر . قال أبو
عبد الله القضاعي : نزل به البربر على كعب بن يسار بن ضبة العبسي وكانوا يعظمونه ويزعمون
أن أبا خالد بن سنان العبسي كان نبيا وبعث إليهم فكانوا يترددون إليه فنسب السوق.(2)
غير أن آخر بحث يتعلق بتاريخ سيدي خالد ، حسب الباحث محمد العربي حرز الله بحث مطول
للرائد كوفي Commandant Vouvet خصصه لأصحاب القباب ومن بينهم خالد بن سنان
العبسي. والبحث منشور في المجلة الإفريقية (مجلد 64-لعام 1923) ويستند الرائد كوفي فيما كتبه
عن المدينة على كتاب إفريقيا المسيحية المنسوب إلى الأب ميسانج. : Le Père Mesange
L'Afrique Chrétienne Mesange الذي يذكر فيه هذا الأخير مدينة سيدي خالد والضريح
الموجود بها منذ القدم . ويتحدث الرائد كوفيه عند الهندسة الفريدة من نوعها التي بني بها المسجد
وخاصة القبة الرئيسية قبل إعادة بنائهما سنة 1920 .(3)

اما عن تاريخ سوق سيدي خالد فهو مجهول لحد الساعة كل ما هو متوفر لدينا ، شهادات كبار
السن في سيدي خالد ، وما توارثوه من تاريخ متواتر عن البدايات الأولى لهذه الاحتفالات ، وفي ذلك
يشير المبحوثين إلى قدم هذه التظاهرة التي لم تكد تتغير في جوهرها طوال القرن الماضي على الأقل
حسب را يهم.

* - المحكة والألوسة : أدوات خاصة بالنسيج.

و خلال هذا الاحتفال يعقد سوق شعبي شهير في شمال افريقيا , وهو سوق سيدي خالد , و يقال حسب المصادر التاريخية و البحوث الميدانية التي انجزت بخصوصه . انه في العصر العثماني كان باي قسنطينة و هي عاصمة عمالة الشرق , يوفد نائبا عنه الى منطقة سيدي خالد من اجل ان يسير بركب الحجاج من افريقيا الى مكة المكرمة بما فيها الحجاج الافارقة , و الذين كانوا يتجمعون هنا و لضرورة السفر انشئ هذا السوق للتزود بكل حاجياتهم .و كان هذا تاريخ بدايته . وتطور مع الوقت و اصبح احد اشهر الاسواق الشعبية في المنطقة .

لقد تعود زوار سيدي خالد وسوقه الشهير , زيارة هذا المكان كل سنة للتزود بما يحتاجون إليه من مواد تقليدية , ألفوا شراءها من هذا السوق , ويعتبرون سلعة مميزة بتميز احتفاله , وحتى لو لم يشتري شيئا يكفي الزائر أن يجول في السوق ربما يسمع شيئا يحبه , أو قصة تعود على سماعها قديما .

و بداخل هذا السوق او هذا الفضاء الرجولي , حيزا مميزا للنساء و فضاء خاصا بهن , صحيح ان سوق الدلالات يعقد يوميا في سيدي خالد , الا ان وجوده وتواجده داخل السوق الكبير الذي يعقد مرة في السنة في ليلة القدر يوم 26 من رمضان و بجانب الولي المشهور و الذي تتخذة النساء جدا و حاميا و حارسا على مصالحهن . هنا يكون سوق الدلالات اكثر من سوق و تكون سلعته اكثر من سلعة عادية . إنهن يبعن العبق و الروائح و الانتماء و الذاكرة و الإرهاصات . انهن يبعن الانتماء الى نساء خدمن جدهن الرمزي و اصفين على سلعتين فيضا من القداسة و الرمزية كذلك , انهن يبعن بالإضافة الى سلعتين ملح الصلاة , ذلك البخور المميز و المقدس كذلك

4-الطقوس والتجارة:

مع قدوم فترة الستينيات والسبعينيات , برزت ثلاثة تيارات منفتحة كانت تهدف إلى فهم التعارضات بين التقليد والحداثة داخل الحيز الحضري . الأول كان في المغرب وساهم فيه جيل جديد من الباحثين الأنثروبولوجيين , كان في مقدمتهم الأنثروبولوجي الأمريكي كليفورد غيرتز , الذي أنجز برفقة فريق من الأنثروبولوجيين دراسة تفصيلية للعلاقات المعقدة القائمة في السوق . (4) تعتبر دراسة غيرتز من اشهر الدراسات التي أجريت على السوق كفضاء اقتصادي واجتماعي , من خلال تحليل العلاقات بين بين المتسوقين , فالنساء في سوق "الدلالات " تربطهن صلات قوية ومتجددة مع كل لقاء يومي , ومع كل مبادلة تجارية تتوسع شبكة العلاقات وتزداد قنوات الاتصال عمقا .

ارتبط هذا السوق بفضاء طقوسي واستمد شهرته من مجموعة العلاقات التي تجري بداخله , بالرغم من انعقاد هذا السوق بشكل يومي في باحة وسط مدينة سيدي خالد , الا ان عبق تاريخ ضريح خالد بن سنان العبسي يظهر جليا , في احاديث النساء ومعتقداتهن وكلامهن وحتى معاملتهن .

لقد قمت بممارسة مهنة التجارة في سوق الدلالات كتجربة بحثية ، اعطتني فكرة أوضح عن الممارسات النسوية داخل وفي فضاء الاضرحة ,فهذا السوق النسائي ، يحوي كل ما له علاقة بالنساء من عقاقير ومواد تجميل وملابس وكل ما له علاقة بجمال المرأة وبيتها ، السوق سوق للنساء والمواد المباعة تعقب بذكرياتهن وتبعث فيها أنفاسهن وروائح جسدن .

تتحضر نساء سوق الدلالات للبيع في السوق الكبير حيث الفضاء الرجالي ,لكنهن يجتهدن في إيجاد مكان لهن ,ففي مساء يوم 25 رمضان تتجمع النسوة خارج المسجد العتيق لعرض سلعتن التقليدية أو البضائع النسوية إن صح التعبير ، و كل امرأة تتادي على سلعتها و تمنع في وصف محاسنها، و إطراء المواد الأولية في صناعتها، إنهن ينتظرن بيعها في الغد، و من ثم التزود ببعض الحاجيات و السلع من سوق 26 رمضان، اللواتي تعودن الحضور إليه، و التبرك بسلعته.

لطالما كان الجانب الاقتصادي بجانب العنصر الديني، و لطالما كان العنصر الديني أو المدنس بجانب المقدس، لا بل أكثر من ذلك ، فهو لا يكاد يفصل عنه بحيث نجد المدنس دائما داخل المقدس و العكس.

زوار سيدي خالد لا يأتون فقط من أجل الزيارة و التمسح بالضريح، بل يأتون كذلك للتجارة، و لكنها تجارة خاصة مرتبطة بضريح مبجل، إنها تجارة طقسية مميزة بأنواع من السلع الخاصة، استمدت خاصيتها من وجودها بجانب الضريح.

5-سلع انثوية وبخور الاولياء:

تتنوع السلع النسوية وتتسابق في عبقها ورائحتها ,ولعل ابرزها نوع من البخور الطقسي الذي يباع في السوق ,ويتسابق الزوار من اجل شرائه انه نوع من الملح الخشن مع إضافات يباع في الأسواق الشعبية وفي زيارات الاولياء والصالحين لابعاد العين وشفاء المرضى في اعتقادهم.

فالطقوس الدينية حسب نور الدين طوالي لا هدف لها سوى إعادة التوازن الداخلي للإنسان الذي يمزقه اتصاله مع تقلبات العالم الخارجي، فمن وجهة النظر هذه تكون وظيفة الطقس الدينية دفاعية قبل كل شيء(5)

يعرف كذلك باسم الملح "الطرطقي" نظرا للفرقة التي يحدثها عند رميه في النار او على صفيح ساخن ,انه البخور الطقسي الذي تحمى به المواشي , ويرد به الغائب ويشفي المرضى....

له شهرة واسعة في سوق 26 رمضان, كما تتخاطفه النساء لفائدته و يتكون من : الملح الخشن، العرعار، أوراق الدفلى، حب الرشاد، السينوج، أمناس، الطرطر، الهبالة، الكزبر" تخلط هذه المكونات حسب ذوق البائعة و يباع بالميال، او أي نوع من العلب القصديرية المستعملة .

يذهب الزوار و المشترون إلى اقتناء هذه المادة لاستعمالها كبخور طقسي ، و يفيد للنفس أو الحسد كما يقال، بالإضافة للعين، و هو إجراء سحري على الأرجح لأنه مشابه لبقية الاحترازاات التي يوم بها الانسان لإبعاد العين الشريرة، و تعليق التمام و الودعة و العين الزرقة و حدة الحصان و قرون الغنم.

و بالإضافة إلى شراء هذا المنتج، لدى الشاربات قناعة لا تقبل الشك و نية خالصة في أنه مفيد سواء للإنسان، أو الماشية، و يلجأ الكثير من أصحاب القطعان إلى اقتناء كميات كبيرة منه، لحماية أملاكهم، و إثباتا لفاعليته.

لكن هذا الملح لديه إسم آخر يشتهر به، خاصة اذا عرض في سوق 26 رمضان إذ غالبا ما يقال له ملح الصلاة، و هي تسمية مميزة اذا ما قورنت بالمناسبة التي يعرض فيها، و أعربت احدى البائعات عن رأيها في الموضوع و سألتها عن تسمية ملح الصلاة، إذا كان قد دخل المسجد و صلى عليه، فقالت: إن بعض النسوة يقولون ذلك من أجل البيع كنوع من الإشهار لبضائعهم و قالت إحداهن "إن داري قبلة الجامع" كنوع من النية.

فيما أكد البعض أن ملح الصلاة يدخل المسجد في هيئة أكياس كبيرة، و يوضع في جهة القبلة و يصلوا عليه، و بالتالي يكتسب هذه التسمية و يكتسب كذلك نوعا من القدسية المحبوبة لدى الناس و المشتريين خاصة حسب زعمهم.

كما أكد هذا الكلام مجموعة مميزة من الزوار، أتت من منطقة واد ريغ، و يعرفون باسم (رجال الحشان) أو بني حشان، و هي تسمية تميزهم عن غيرهم، و تميز ملحم أيضا.

و تكمن خلطتهم السرية في إكثار مادة "الطرطر" و هي مادة كلسية ملونة، يكثر فيها اللون الأصفر و الوردي و الأزرق، و بالتالي تكثر الألوان في الملح، و أصبحوا يسمونه "الملح المنور".

يتوافد بني حشان "وهم سكان منطقة وادي ريغ" إلى سوق سيدي خالد بصفة دورية و منتظمة

يتواصل الزوار لسيدي خالد من تقرت و جامعة و لمغير و سطيل و غيرهم من مدن وحواضر الجنوب الجزائري رجالا ونساء من اجل اللقاء الطقوسي والتجاري في مدينة سيدي خالد.

تتميز الأسواق الشعبية بمواد تقليدية خاصة فالبخور بكل انواعه يتصاعد عبقه بين انفاس البائعات ووسط تجمعهم الانثوي بخور متشكل من عبق الذاكرة وعادات متجذرة "فالجاوي والسرعين وامناس " أنواع بخور تقليدية تحضر يدويا ومواد أولية بسيطة ،تتسابق النساء البائعات في تحضيرها.

فمن البخور ، الى "الروينة" والى سخابات العنبر "القلائد" ، على كل ما هو مبتكر ، و كما يتنوع ملح الصلاة بتسمياته و مكوناته، يتنوع البخور الذي يستعمل، في حضرة هذا الولي الموقر، و يطيب ضريحه، و يباع تبركا، ووجدا به، فالجاوي بخور تقليدي بلون أسود، له رائحة زكية، و يباع على شكل أحجار غير مسحوقة بالكامل، هذا البخور خاص بالأولياء، و معروف كثيرا في الحضرة، و في حالة الجذبة يكون أول شيء يأكله المغمى عليه من الرقص و الانفعال، كما يوضع مفتاح في يده ليستقيق.

و النسوة قديما، يتبخرن بالسرغين "السرقيين بلهجة الأهالي" بعد الاستحمام، فتبقى رائحتهن عطرة لمدة طويلة ، وهو من السلع النسوية المميزة في سوق الدلالات ولأن الجاوي والبخور والروائح العطرية والمأكولات هي تعبيراً عن نقالات حضرية ثقافية لدى المجتمعات البشرية ، فهي نقالات راقية توصل الإنسان وتفصله عن عالم الحيوان (أصل الأشياء) بحيث استطاع الإنسان أن يضيف أشياء لحياته إلى أن وصل إلى مرحلة الطهي والتذوق. ونظرا لأهمية هذا البخور فقد استرجعت طريقة صناعه.

و يحضر هذا البخور بطريقة بدائية نوعا ما ، مكونا من مادة "اللداد" وهي شجرة صحراوية ثم يرش عليه نوع من العطر المحبب، و يوضع تحت الشمس لمدة "04 أيام" يباع هذا المنتج في مكيال عبارة عن كأس شاي زجاجي و تتلف عليه النسوة لما له من رائحة زكية و لإبعاد الأرواح الشريرة في اعتقادهن.

و في الحقيقة لهذا البخور رائحة زكية فعلا، تعودت عليها منذ صغري فقد كانت والدتي تحضر السرغين بطريقة يدوية كثيرا ما كنت حاضرة خلال عملية الاعداد، و رائحته ممزوجة في مخيلتي بطعم حلوى غزل البنات كما كنا نسميها أو "حلوى الصوف" هذه الذكريات التي انتابنتي تعاد صياغتها مع أناس آخرين، هم اولاد و زوار سيدي خالد القادمون مع أهلهم، فقط الفرق بيني و بينهم هو اقتران ذكرى رائحة السرغين و الحلوى بروائح و احداث أخرى، و مناظر لصومعة بيضاء، و أغاني شجية، وسوق شعبية.

6-تجارة نسوية...تجارة طقسية:

*-سخاب العنبر قلادة تصنع من عجينة القرنفل تلبسها المرأة في المناسبات

تتخذ النسوة مكانا خاصا بهن بجانب السور الطبيعي الذي يحيط بمقبرة سيدي خالد، يبعن سلعتهن المتمثلة في الملابس الخاصة بالنساء، وكل ما تحتاجه المرأة من عقاقير و حشائش طبيعية طبية، تستعمل لأعراض مختلفة مثل حشيشة العرعار و الشيح و الكليل و الزعتر و غيرها إلى ما تحتاجه المرأة من مواد للزينة و التطيب من سرغين، جاوي ملح الصلاة، كحل عربي، الذي يحتوي على مواد مختلفة للحفاظ على صحة و جمال العين، بالإضافة إلى الشب و أنواع مختلفة من البخور المصنوع محليا. و عندما اتخذت مكانا لي في السوق لأبيع، طلبت مني مضيفتي أن أنادي على سلعتها، و أردت دون توقف "أنه ملح الصلاة، ملح الصلاة".

فيما تردد البائعات اللواتي بجانب سيدي خالد و سوق 26 و كأن كل ما يباع مغلف بغلاف من القداسة و البركة.

إمرأة بجانب تباع سخابات العنبر، ميسورة الحال من أولاد جلال، تعودت أن تصنع العجينة المعدة لصنع الخرزات من طحين القرنفل و الجاوي، و خليط مميز من المواد العطرية التي تحتاجها المرأة في الزينة، تعدها خصيصا مع بنات إبنها اللواتي تعودن على مثل هذه الأعمال، و تأتي ببضاعتها إلى سوق 26 رمضان من كل عام تيمنا و بركة.

تشتهر النسوة عند الزيارة ببيعها لعقاقير و أنواع مختلفة من السلع الأنثوية إن صح التعبير، فالبخور الخالدي المميز سلعة مبهرة و مطلوبة و إن كان الزوار و النساء خاصة يفضلن شراءها بعد بيع سلعتهن.

تمارس البائعات هذه المهنة من زمان، و تصر على الاستمرار فيها بالرغم من كبر السن، و الصوم و الحرارة المرتفعة في هذا المكان، فقط لاعتقادهن أن النقود المكتسبة من بيع البخور و ملح الصلاة و غيرها من العقاقير، تعد نقودا مباركة حسب إحداهن "صوارد مبروكة، و يطرح ربي فيها البركة بجاه سيدي"*

إن مجرد وجود الجانب المادي و الاستغلالي أن صح التعبير ، متمثلا في التجارة كفيل بأن يدمر كل ما له علاقة بالمقدس بصفة عامة، و يصبح التدنيس رمزا واضحا لهذه الطقوس الاحتفالية، و الخروج من المقدس هو عملية مبادلة، و مقابلة سلعة مادية بأخرى غير مادية، و كأننا نشترى الرضا و الاطمئنان بمقابل مادي، يكفي أن تكون في مكان مقدس لتكتسب بضاعتك نفسها.

و هو تحديدا ما ذهب إليه ماكس فيبر في تحليله للعلاقة بين القيم المادية شراء للرضا أو

ما les Biens de Salut.

*-احتفال 2006. في سيدي خالد ولاية بسكرة الجزائر

كما نشترى صحة الأبدان ، وحملا قادما ، ورجوع الغرباء الذين طالت غربتهم ،ونبيع الشرور والآثام ... نشتهي سلعا ومواد تشير إلى كل ذلك ويزول الإثم الدنيوي وقذارة ما اقترفته الأيادي والجوارح ، إنها عملية تبادل كبيرة في تجارة مفتوحة في فضاء يحدد قيما متناقضة ، ويوحى بالرضا وبركات ويفصل بين كل الحدود المتباعدة المتقاربة.

خاتمة:

لقد كان سوق الدلالات فضاء مهما للنساء فهو ليس مكانا للبيع فقط ، وانما هو مكان انثوي خاص بهن . يفرضن بواسطته سلطة انثوية استمدت جذوتها من انتماء مقدس لجد مؤسس واب روجي لكل الخالديات اللواتي ارتاين لانفسهن ان يحفرن في ذاكرة المكان ما سيكون ,نساء وضعن ثقتهن في قدراتهن وجهدهن من اجل كسب العيش والمحافظة على حد ادنى من كرم المعيشة.وبالرغم ما تعانيه المرأة الخالدية من تعب وجهد بالغيين في الماضي حيث كانت تتسج الصوف وتعيش من مدخوله , وفي الحاضر حيث المنتجات النسوية وأدوات ومواد الزينة التقليدية التي أصبحت سلعة ذات طلبات. الا انها استطاعت ان تحفر حيزا خاصا بها في سوق ذكوري.ووجدت مكانا محترما لها حيث تبيع هي وكل النساء الحاضرات في هذا السوق التقليدي المقدس.

انه التأثير الذي تفرضه ثقافة منطقة ذات خصوصية و تاريخ وانتماء . و هي الخصوصية ذاتها التي استوعبتي و استوعبت فضائي وطموحات بحثي في اكتشاف سيدات محترمات ,عندما كنت بائعة معهن في سوق الدلالات.

الهوامش:

- 1- محمد تركي الربيعو. من سوق صفرو المغاربي إلى حي الشعلان الدمشقي: تاريخ الدراسات الحضرية حول المدينة العربية. مقال 12-08-2017
- 2- محمد العربي حرز الله ، الظاهرة الثقافية في سيدي خالد ، ط1. منشورات وزارة الثقافة الجزائر. 2005.
- 3 - محمد العربي حرز الله ، الظاهرة الثقافية في سيدي خالد ، ط1. منشورات وزارة الثقافة الجزائر. 2005.
- 4- محمد تركي الربيعو ,من سوق صفرو المغاربي إلى حي الشعلان الدمشقي: تاريخ الدراسات الحضرية حول المدينة العربية.12مقال -08-2017
- 5- نور الدين طوالي .الدين و الطقوس و التغيرات. ط1. ترجمة وجيه البعيني. منشورات عويدات بيروت باريس وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 1988.ص38

مراجع المقال:

- 1 -محمد تركي الربيعو. من سوق صفرو المغاربي إلى حي الشعلان الدمشقي: تاريخ الدراسات الحضريّة حول المدينة العربيّة.مقال 2017-08-12
- 2- محمد العربي حرز الله ، الظاهرة الثقافية في سيدي خالد ، ط1. منشورات وزارة الثقافة الجزائر. 2005.
- 3- نور الدين طولبي .الدين و الطقوس و التغيرات. ط1. ترجمة وجيه البعيني. منشورات عويدات بيروت باريس وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. 1988 .

قائمة الأعشاب والعقاقير و معانيها

الملح الخشن*****غالبا هو الملح البحري يستعمل للبخور من العين و
الحسد
العرعار*****نبات العرعر
أوراق الدفلى*****المرّة
حب الرشاد*****حب الرشاد
السينوج*****حبة البركة
أمناس*****نوع من البخور طيب الرائحة
الطرطر*****مادة كلسية ملونة تضاف لبخور الملح
الهباله*****مادة كلسية
الكزبر*****بذور الكزبرة
الشيح*****عشبة الشيح
الزعر*****الزعر
الكليل*****اكليل الجبل
السرغين*****نوع من البخور يحضر محليا و بطريقة تقليدية.
الشب*****هي الشبة
الجاوي*****نوع من البخور اسود اللون في الغالب.
القرنفل او الطيب*****هو القرنفل او المسمار
العنبر*****عجينة تحضر بمسحوق القرنفل لعمل قلائد ذات رائحة زكية.